17

يافا... ثمّ تل أبيب

حلّ دور تل أبيب ويافا، بالأحرى يافا وتل أبيب. يافا المدينة القديمة التاريخية وميناؤها الذي طالما تغنّى به الأخوين رحباني، وآثار جمال كان بالأمس هنا، لم تستطع أن تخفيه بيوتها العتيقة المتهالكة ولا الغبار الذي يسرح على أرصفتها. نعبر سوق الأنتيكا على عجل ونتقدم نحو ميدان الساعة الشهير ونحثّ الخُطى لنصل إلى الواجهة البحرية الخلّابة وننتعش بنزهة ممتعة ونلتقط بعض الصور كالسائحين.

نتجه بعدها نحو جنوب تل أبيب، أول مدينة إسرائيلية! في الحقيقة لم تراودني أدنى رغبة بزيارتها فهي تمثّل لي أول انجاز للعدو. لقد ربح فبناها وأمست رمزا لانتصاره. هكذا أيضًا يراها الفلسطينيون، وبدون مبالغة

يمكن اعتبارها المدينة الوحيدة من كل البلد التي تخص الإسرائيليين حقًا وهذا ما يبوحون به.

– إنها تل أبيبهم يا أخي، مدينتهم، مكانهم، تل أبيبهم يا أخي.

لم ألمس فيها شيئًا خاصًا، ليست سوى عمارات ضخمة حديثة تمتد على طول الشاطئ، مثل بيروت. طرازها كالبلوكوس(*) مقارنة بمبان من سنوات العشرينات والثلاثينات، تذكر بأحياء أوربية في الجزائر العاصمة والرباط.

ترافقنا خلال الزيارة صحفية فرنسية تشتغل على أطروحة حول التاريخ المعماري لهذه المدينة. أقوالها تثير غيظي ورفضي التام دون أن يعني هذا مواجهتي لها، على العكس كنت استمع لما تدلي به بكل تهذيب. على كل حال هي "غربية" الميول تمامًا. تحكي لنا أنها عاشت 12 سنة في القدس (الغربية) مع زوجها الذي يعمل على شاكلتها للتلفزيون الفرنسي، تُعلمنا أنها انفصلت عنه مؤخرًا وأنه عائد لباريس محبطًا. تختصر رؤيتها للصراع بالتالي: اعتداءات، أمن، ثم اعتداءات فأمن وهكذا... هي بالطبع ليست من النوع الذي يلحظ عربات بائعي الخضار والفواكه الفلسطينيين التي تمر بجانبهم، فهؤلاء كأنهم ليسوا هنا كأنهم ليسوا مخلوقات من لحم ودم بل كمستحاثات من العصور الحجرية.

(*) مصطلح من اللغة الألمانية يستخدم لوصف عدة أماكن منها: مأوى عسكري دفاعي متواضع وصغير مصنوع من الخرسانة المسلحة، صُمم لمقاومة هجمة جيوش العدو وقد بنت منه ألمانيا الكثير في فرنسا في الحرب العالمية الثانية – (المترجمة).

– لنذهب الآن لرؤية البحر وللسباحة.

بهذا الاقتراح يفاجئنا ساري!

يا إلهي! جنّبنا هذا "بليز" ساري، من فضلك جنّبنا هذا. الشاطئ؟ لا، ليس معهم! لكننا لم نستطع معارضته، فرض علينا الامر. يختار ركنًا مزدحمًا حيث تلتصق المظلات وتتتابع واحدة تلو أخرى وحيث سأجد نفسي ملتصقة بأجساد العدو، أجساده بالمايوهات. آه! من ساري هذا!! هل لديه احساس ما؟ حتى لو وجد فهو لا يبديه على أي حال. كم هو قوي، يمرر كل شيء بكل أريحية وصمت! ينحشر بكل مرح بين هذه الكتل التي تثير نفوري ومخاوفي وكأنه لا يبالي.

بالطبع العبرية هي اللغة المنتشرة حولنا، وبالطبع يحضر صبية مطعم البلاج وعلائم السرور على محياهم، الحمّص والبطاطا المقلية والبطيخ الأحمر والمثلجات. نعم بلاج مودرن بلمسة شرقية! يطغى عليّ شعور ندم وعدم ارتياح فأنهض لأنضمّ لابني الذي كان يطبّش في الماء ويتصرف كأن شيئًا لم يكن. أحسه مثلي مرتبكًا ضائعًا، ومثلي كذلك عاجزًا عن الكلام.